صناعة الذوق الجمعي

نجلاء الشهري

كيف يصبح غير المستحسن، مستحسن لدينا فجأة بلا أسباب واضحة ؟

يتحدد ذوق الفرد بناءً على مقياس الذوق عند العامة، وهذا يغلب على الإختيار المستقل عن تلك التأثيرات والعوامل المُحدِدة لمعنى الذوق العام وتعريفه الإجتماعي.

ينتج عن هذا الإقناع الجماعي التسليم اللاإرادي ببعض الآراء، خاصة حينما تكون متجمهرة، وهي المتحكم بما يسمى الموضة (الدُرجة).

تجد خصوبتها في الأوساط الأكبر عددًا فتشيع بسرعة وسهولة، وغالبًا ما نرى الدُرجة تفرِض أشياء لامعقولة، وتتمظهر في أشياء على قدر كبير من العبثية، وفوق ذلك تظل مثيرة بفضل العدوى الذهنية.

في الواقع، لا وجود لمعيار حقيقي لمقياس الجمال، فتعريف الجمال من شخص لآخر يختلف، ولكن في حالة الذوق الجمعي يصير حينها ذات معيار ومفهوم واحد، فلا أحد يقول بأن الجمال هو ما ترتاح له نفسي، بل ما يرتاح له الجماهير ؛ لأن المعيار السائد لقياس الذوق لدينا هو مدى مطابقة الشيء الذي يعجبك لأمزجة الاخرين، بمعنى انه لو أعجبت إختياراتك أغلب الناس ستصنف على انك ذا ذوق جميل والعكس.

إن ما يحدث خلف كواليس الإعلام الذي يروّج بدورهِ لنمذجة الميول الذوقية، يمتلك قدرة هائلة على خلق عقليات جمعية، لها نفس التوافقات، ومن يشذ عن تلك القاعدة يُعاب ذوقيًا، بحيث أننا مُقيدين -دون أن ندرك- على احتضان هذه الذائقة الجماهيرية.

مما يحكم الدُرجة هو الإهتمام اللحظي، الذي يعد أحد عناصرها، مايجعله قوي ونشط كفاية لأن يحتضنه الفرد، وهش بما يكفي لأن يتغير خلال فترات وجيزة.

هذه التغييرات تخلق التحولات في الاهتمامات والحاجات التي تتبدل من جيل لآخر.

فالعاطفة الذوقية إن صح التعبير، تسترعي الاهتمام بجوانب عديدة، أهمها جانب مدى رضا وقبول صنّاع الذوق العالمي بهذه العاطفة.

حتى صار التكرار والتأكيد على روعة وجماليّة شيء ما أو أسلوب معين يدفعنا إلى الأخذ بهِ دون أن نعي الأسباب.

وهذه تعتبر احدى أبرز القواعد الثابتة التي تساعد على الانتشار حتى داخل العينات الأكثر تعليمًا وثقافة.

فالذائقة العامة باتت تصنع قراراتنا ولا يدخل في هذه القوة أي إرادة عقلية، ولكننا نوهم أنفسنا بأنه كانت لنا قدرة التحكم والاختيار.

كما يلعب الجانب النفسي دوره، إذ يجد المرء الارتياح غالبًا فيما يألفه باقي المجتمع.

وهذه العوامل قد نراها تفاصيل صغيرة لا تستدعي الانتباه أو الالتفات لها، هي في الحقيقة تمتد في تأثيرها حتى تصل إلى تحديد ذائقتنا الأدبية والمسرحية والفنية، فتتغيّر القيمة المعنوية للأشياء وتتشكل، بحيث أن التوافق الجمعي الأكبر تجاه الشيء هو ما يمنحه قيمة لدى الأفراد ويتلقى استحسانهم.

يقول غوستاف لوبون: إن طريقة تفكيرنا وترجمة انطباعاتنا عن الأشياء تتغير بإستمرار، وهذا الخضوع للدُرجة ماهو إلا واحد من البراهين الواضحة على سطوة العدوى الذهنية.

نجلاء الشهري @La_femme9